يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] لأن أحقية العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له ، وكان الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] يعني : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعني : لا أحد يقول لله : هذا في جواري ؛ لذلك ذَيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى(١) :

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى

(١) سبب نزول الآية : عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه كان يقسم قسماً ، إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال علي رضي الله عنه : أنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة . أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطي (٦/١٨) وعزاه للبخاري ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٢)﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. (١٩)﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطَّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هي التي تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذي يفصل بين هذين الخصمين ، كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه[1] : أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل ومعي عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء في جانب وفي الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة في الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم في معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم في الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع في القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - في موقعة صفِّين حيث قال علي لمعاوية : ابرز إليَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتني فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لي . فقال عمرو بن العاص وكان في صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفي هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين في الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٤٤) قال : « أنا أولُ من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴿١٩﴾﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلني ، ويكون لك الأمرُ من بعدى ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة على ، لكن أين عمرو من شجاعة على وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه فى صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه عليٌّ وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه[1] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ فى رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ   كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَته عَمْرُو

ويقول الشريف[2] الرضى - وهو من آل البيت - فى القصيدة التى مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ   أَمـــا لِلْهَوَى أَمْرٌ عليْكَ ولاَ نَهْيُ

---

(١) ذكر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » (٤/٢٧٤) أن علياً رضى الله عنه نادى : ويحك يا معاوية ، ابرز إلىَّ ولا تفنى العرب بينى وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلى لتصيب الخلافة من بعدى ، اذهب إليه ، فليس مثلى يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فالقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ، فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقانى بسوءته فذكرنى بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضى العلوى الحسينى ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) فى بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف فى حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين على بن أبى طالب » [الأعلام للزركلى ٦ / ٩٩] .

بَلَى أنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدِى لَوْعَةٌ   وَلكِنْ مِثْلِى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

• وفيها يقول :

وإنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا   لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين[1].

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْلُ الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

---

(١) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » (٦٢٥/٢) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث ـ وأمهما عَفْراء ـ ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة ـ فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم ، عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج]

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةٌ فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شِدَّة حَرِّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغْليه ربنا عز وجل !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

فالإذاقة ليستْ فى اللباس ، إنما بشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً فى العذاب .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يُغليه ربه الذى لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلى علىَ جسم إنسان فإنه يشوى جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمَّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم

فإنه يصهر ما فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴾ (٢١)

المقامع : هى السياط التى تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ (٢٢)

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوِّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبى[1] فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتَّى ... كَأنِّى فى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

فكنتُ إذَا أصَابتْنى سِهَامٌ ... تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النِّصَال

لكن أنَّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سُبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ففى إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمعوا فى النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأس مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس فى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج] الحريق : الشيء الذى يحرق غيره لشدته .

• • •

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجرى العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ؛ وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى آيات القرآن وفى هذه المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى مَا أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿ جنَّات تجرِى مِن تحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٢٣) ﴾ [الحج] والزينة : ﴿ يُحلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا .. (٢٣) ﴾ [الحج] واللباس : ﴿ ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾ [الحج] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفى الآخرة يُنعِّم الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّم عليهم فى الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شيء تنعّمنا به فى الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شيء ، فالحلى للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذى كان عليه[1] . كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] يعنى : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق :

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

---

(١) أورد ابن القيم (فى حادى الأرواح ص ١٨٩) عن كعب الأحبار فيما أخرجه ابن أبى الدنيا : « إن الله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصوغ حلى أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ، لو أن قلباً من حلى أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس ، فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة » .

(هُدُوا) هداهم الله ، فــالذى دلّهم علــى وســائل دخــول الجنة والتمــتّع فيــها بالسكن والزينة واللبــاس كذلك يهــديهم الآن فى الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ..(٢٤)﴾ [الحج] هذا القــول الطيب لخَّصتــه آيات أخرى ، ومنها،قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ .. (٣٥)﴾[فاطر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. (٣٤)﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحــمد لله ، كمــا يقول الحق سبــحانه عنهم : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقالوا[1] : ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..(٢٤)﴾ [الحج] هو كلمة التــوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هى المعشوقة التى أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كمــا قال سبــحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تــعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجــنة ، أو إلى الجنة ذاتهــا ، كمــا قــال فى آية أخرى عن الكافرين :

---

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٢] . وقال أبو العــالية : قولــهم الله مولانا ولا مــولى لكم . أى : فى الخصــومة . وقــال إسماعــيل بن أبى خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخــلاص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [الدر المنثور ٦/٢٤] .

﴿ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) إلا طريق جهنم..(١٦٩)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ[1] فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[2] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿وَيَصُدُّونَ .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشيء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أي : عن الجهاد ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان في قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً في الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذي طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

---

(١) العاكف فيه والباد . أي : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٢/٣١] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أي : من يرد في المسجد عملاً لا يرضى الله متلبساً بميل عن الحق ومتلبساً بظلم . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدى فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهى خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذى قال الله فيه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستْر كبريائهم ، والحَدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التى كانت تُذْكى نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كلاً الفريقين يريد أنْ يَفنى الآخر ، وربما استمروا فى الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال فى الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هزَّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقِن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب فى هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتى صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فجلس الرجل فى غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ،

فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - (مُوديَّانى فين يا أم هاشم)

وكذلك ، جعل فى المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذى حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرَّم أيضاً القتال فى هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغلِّ والحقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى فى تحريم القتال فى البيت الحرام : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ [البقرة]

فلعلَّهم حين تأتى شهور التحريم ، أو يأتى مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمتأمل فى هذه الأماكن التى حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهى مكة ، ثم المشعر الحرام الذى يأخذ جزءاً من الزمن فقط فى أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذى نراه ، الكعبة هى المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ فى أعماق الأرض أو صعدْتَ فى طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، ألاَ ترى الناس يُصَلُّون فى الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة فى الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلى البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذى نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلى فى الشارع فهو فى هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو « صلح الحديبية » الذى أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلمَ نُعْطى الدنيّة فى ديننا؟[1] .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل فى صفوف

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٨/٤) ، والبخارى فى صحيحه (كتاب الجزية - باب ١٨) وكذا مسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) وفيه « أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله . وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[١] .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ موقف عظيم في هذه الشدة ، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة في الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعني : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنِعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة ـ يعني لا رجعةَ فيه ـ وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة[٢] .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : في هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب في حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

---

(١) كان رأى رسول الله ﷺ في هذا الشرط الذي اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم في صحيحه (كتاب الجهاد ـ باب ٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٣/٧) بشرح فتح الباري ـ كتاب المغازي من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٠/٤) .

الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كى يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

ثالثاً : كان فى إمكان رسول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان فى مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا فى جانب لأمكن تفاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا(1) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أى : جميعاً ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج] العاكف فيه يعنى : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿سَوَاءً .. (٢٥)﴾ [الحج] يعنى : هذان النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم فى بيت الله الحرام خاصة ، وفى بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دعَتْ هذه الآية : ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج]

---

(1) لو تزيلوا : لو تفرقوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/٥٣٤] .

البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل فى بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب[١] .

وهذا الرأى مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبنى فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة[٢] نقاش بين الحنظلى[٣] فى مكة والإمام الشافعى[٤] ، حيث يرى الحنظلى أنه لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعى رضى الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه فى المهاجرين : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .. ⑧﴾ [الحشر]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٦٤/٦) : « كانت دُورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً فى وجه حاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ، وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢١٤/٣) : « هذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً » وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلى نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [الأعلام للزركلى ٢٩٢/١] وتذكرة الحفاظ للذهبى (٤٣٣/٢) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ فى غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها وقبره معروف فى القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » [الأعلام للزركلى ٢٦/٦] .

فنسب الديار إليهم . ولَمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟»[1] وكونُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلى إلى رأى الشافعى .

هذا مع أن الآية تعنىَ البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج]

الإلحاد قد يكون فى الحق الأعلى ، وهو الإلحاد فى الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقّ ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. (٢٥)﴾ [الحج] الظلم فى شىء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث فى بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك فى بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحى من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك فى مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته ميْزة فى مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت فى رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥١) وتمامه « أن أسامة بن زيد قال : يا رسول الله ، أين تنزل ؟ فى دارك بمكة ؟ قال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا على رضى الله عنهما شيئاً . لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين » .

(٢) قال ابن مسعود : من هم بخطيئة فلم يعملها ـ فى سوى البيت ـ لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٢٦) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : (تيجى فى بيت العالم وتسكر) يعنى : السُّكْر يُتصوَّر فى بيت أحد العصاة ، فى بيت فاسق ، فى خمارة ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شىء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصى ربك فى عُقْر داره ، وأىّ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد فى أى مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التى تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .